يحضر عنده استحضره وسمع عليه وأسمع من يَحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان الشيخ ممن لا يَطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردّد إلى الحافظ السَّلَفي بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه). [(٥٢٠) الروضتين]

هذا عن العبد صلاح الدين أما المسئول صلاح الدين فقد أخذ بطرف الخيط الذي نسجه المجاهد نور الدين محمود رحمه الله فهو يبني المدارس الشرعية ويكرم العلماء. هذا هو الطرف الأول فماذا عن الطرف الثاني في الحقيقة لقد أجاد وجدد صلاح الدين ثم أجاد وجدد.

باب: السياسة الشرعية

المذهب اليجبي

جل البشر يجد في نفسه القدرة على حل أعقد المشاكل من خلال علاج سحري فوري مضمون، طبعًا

يختلف هذا العلاج من مشكلة وأخرى، ومن معالج إلى معالج إلا من كلمة هي مفتاح أساس الحل إنها كلمة [يجب أن] وهي ظاهرة يشترك فيها جنرالات المقاهي من العامة وساسة العالم الثالث من القادة، هذه الكلمة السحرية تجعل علاج أي مشكلة لا يستغرق أكثر من نصف دقيقة. فالمشكلة الاقتصادية: بطالة غلاء... الخ لكي يتم علاجها فيجب أن يزيد الإنتاج ويجب ترشيد الإنفاق ويجب نمو الصادرات.... الخ.

ولكي نمنع إسرائيل من غيها فيجب أن يتحد الصف، ويجب أن نأخذ بعلوم العصر، ويجب أن تمتنع أمريكا عن دعمها... الخ، وقس على ذلك أي قضية أو مشكلة.

إن الحل ليس بكثرة البنود اليجبية، إنما بالقدرة على تحويل ما يجب إلى واقع لكل أفراد هذه اليجبيات وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل الكثيرين من المسلمين لا يثقون في كفاية الإسلام كدستور وكحل، فهم لا يرونه إلا من منظور الخطابة اليجبية التي ينتهي فيها دور الداعية المسلم بأن يناشد آحاد الأمة ليوضح لهم ما يجب وما لا يجب دون أن يتجاوز ذلك ليبين لهم آليات وبرامج عملية (ولو على المستوى النظري كيف يفعلونها وكيف يواجهون ما يعارض

وجهتهم من حولهم، بل وفي دخيلة أنفسهم، وكيف يتحولون من فرد هائم إلى مجموع هادر).

وحتى لا ندفع لتطرف مضاد فلنوضح: إن بيان الصواب والخطأ، ما يجب وما لا يجب هو الأساس لأي انطلاق صحيح لكنه يظل مشلولا لا قيمة له عمليًا حتى يستكمل ببرامج واقعية، وهذه البرامج تظل كسيحة حتى تضخ فيها موارد بشرية ومادية وعلمية تمثل طاقة الدفع، فلا وصول إلا بقوة دفع، قوة تدفعك نحو محطة الوصول، وتدفع عنك قوى المقاومة التي تصدك سواء كانت داخلية أو خارجية، إنها بديهية فكيف نغفل عنها.

وهكذا نكون من خلال الواقع قد توصلنا لموافقة ما جاء بالوحي ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾

[الحديد : ٢٥]

فلا تعارض البتة بين النص الثابت والتجريب الدقيق والعقل الصحيح والفطرة النقية إلا في المناهج الأرضية والديانات المحرفة. ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ**

النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

الفارق بين السياسة والسياسة الشرعية

نعود للكتاب ومن تحته الحديد أو بعبارة أخرى إرادة من في السماء التي من اجلها تكون القوة و البأس الشديد، لندرك الفارق بينها وتلك الممارسات التي يقوم بها البشر لفرض باطلهم الذي يروجون له بأسماء جميلة براقة وهي في حقيقتها نقيض القسط والخير.

الكل يستخدم ما يملك من قوة لخلق واقع يراد، ولكن الفارق بينهما هو الفارق بين السماء والأرض.

ويطلق الآن على هذه النوعية من الممارسات في مجال الاستثمار الأمثل للقوة الذاتية في معالجة القوى الداخلية والخارجية بغرض فرض الإرادة على الآخرين أو مقاومتها بقدر الإمكان اسم (السياسية).

وهذا هوتعريفنا المختصر المختار إنها [فن معالجة القوى لحسم صراع الإرادات]، القوة بكافة صورها هي مفهوم الأساس، أما الكفاءة والحكمة في معالجة القوى بالقوة

الذاتية وتحديد ما يمكن فرضه من إرادات أو مقاومته هذا هو فنها الراق.

وإذا كانت هذ الإرادة موافقة للوحي، وطريقة استثمار القوة في معالجة القوى منضبطة بالشرع حينئذ يصبح اسم هذه الممارسة [السياسة الشرعية]. إنها السياسة التي تستخدم الحديد لإقامة الميزان لا لتمكين الأهواء، وهذه سنة الأنبياء ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [سورة ص: ٢٦]، ثم من يقوم مقامهم كما يوضح لنا الرسول ﷺ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ.....**» [رواية البخاري].

فإن كنت ممن يستنكرون ربط السياسة بالشرع فأنت أحد رجلين: إما علماني فالمناقشة معك تكون من نقطة الصفر إنها العقيدة.

وإن كنت ممن ينتسب للفقه فدع عنك الصورة الوضيعة لمن يمارس السياسة، فتلك صورة نتبراء منها مثلك تماما، إنما ندعوك لتوازن بين نظرك في كتب الفروعيات

والحواشي والملخصات من جانب ودراستك للقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ وسياسته الشرعية ثم سيرة صاحباه من بعده ومن صار على هديهم، حينئذ ستجد هذه الحقيقة في سطوع الشمس وستأتينا – إن كنت فقيه حقًا – بالكنوز تلو الكنوز فنتعلم منك كيف نعبد ربنا بطول الحياة وعرضها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] وكيف نُعبد غيرنا.

نعود إلى صلاح الدين الذي يواصل جهود سابقيه لبعث الأمة من جديد لتكون أقرب لصحيح دينها وليوحدها على التوحيد (كما كان يظن).

باب: صلاح الدين والسياسة الشرعية

الكيمياء السياسية

هذا المشروع الضخم كما أسلفنا لم يكن ليتم في فراغ من القوى بل كان لزامًا عليه أن يعالج كل منها على حدة بما يناسبه ويناسب المرحلة، وفي الحقيقة لقد أجاد وجدد صلاح الدين ثم أجاد وجد في فن التعامل مع هذه المفردات بحسب ارتقائه سلم المراحل، ووفق إحداثيات تلك القوى

من حيث منحنى (النوعية، الكمية، المكانية، الزمانية) لا من رؤية جامدة إنما من خلال قواعد ثابتة ترصد أي طارئ على ميزان القوى (المادي والنوعي) بحسب ما أحدث بيده أو ما أُحدث بغيرها.

هكذا يمكن أن تفهم معالجاته المتعددة للقوى المختلفة – بل مع القوة الواحدة – (فالعداء / الهدنة / التحالف / الإغفال / التصدي / الضغط / التنازل / الاستيعاب / الدمج / الاستعمال / ....الخ) تكتيكات استخدمت بمهارة وفق إستراتيجية جامعة، والأهم من ذلك أنه في كل حال يلتزم بالقيم السامية وقواعد الشرع الحنيف.

تأمل الموقف من آل زنكي، من الخليفة الفاطمي، بل من حركة الحشاشين التي حاولت اغتياله مرتين أو ثلاث وكيف استطاع أن يوظفها في نهاية الأمر لخدمة الإسلام) يأتي ابن الأثير على واقعة تعاون السلطان صلاح الدين مع الإسماعيلية في سنة ٥٨٨ هجرية وقتل المركيس – صاحب صور–، وهو أكبر شياطين الفرنج.. وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الإسماعيلية بالشام، وهو سنان، وبذل له أن يرسل من يقتل ملك إنكلترا، وإذا قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار.. فأرسل رجلين في زي الرهبان،

واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان، صاحب الرملة، وكانا مع المركيس بصور، فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة، فأنس بهما المركيس، ووثق بهما.. فوثب عليه الباطنيان المذكوران.. وقُتل الباطنيان بعده). [وليد مرجع سابق]

متي الحرب متي الهدنة مع الصليبيين؟، متى الإحجام متي الإقدام؟ تأمل معضلة حلب ذات الوضع الإستراتيجي الهام والسياسي المعقد وكيف يبرر ويمهد لأخذها؟ كيف ومتي يخاطب الخليفة في ذلك؟ وكيف يتحصل عليها؟

ستجد كل ذ لك يتم وفق استراتيجية ثابتة:

كليات أساسية تحكم السياسة

أ- على المنظور الداخلي (أهل السنة): جمع القوى بالطرق السلمية الحكيمة (ما أمكن) وإلا فالصراع المدروس عند الضرورة بعد استنفاذ كل طرق الضغط (المنهجي – المادي) والمقايضة. فالجمع وإعادة التوظيف للآخر مقدم دائماً على محاولات الإقصاء ،وهنا تستنفد وسائل مثل: الصبر، الدفع بالتي هي أحسن، الإصرار علي توضيح الغاية الصادقة لمواقفه. (قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه، وانعكافهم

عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحمّلوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي مَلّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده) [(٢٩٩) الروضتين]، (ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك التمويهات العاطلة لم يعره السلطان – رحمه الله – طرْفاً ولا سمعاً، ولا ردّ عليه بل ضرب عنه صفحاً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين.

فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، و أوماً إلى رجاله

بإقامته من بين يديه) [(٣٠٠) الروضتين] وسيأتي المزيد من هذا الباب في حينه.

ب- أما على المنظور الخارجي (أعداء الإسلام) فالاختيار أن يكون هو المحدد لشكل ووقت وكيفية الصراع مع استخدام المصالح للتفريق بينهم و بل واستعمالهم (وكان قد استأمن من الفِرَنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدوّ ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوساً - وهو المركب الصغير - فركبوا فيه وظفروا بمراكبَ لتجار العدوّ بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسروهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم، وأحضروا مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطاراً، فما أعارها السلطان طرفه احتقاراً). [(٤٧١) الروضتين].

وهو يقتنص الفرص السانحة بصراعهم أو بتضارب

مصالحهم، يقول الأستاذ وليد نويهض في دراسته القيمة (صلاح الدين الأيوبي سقوط القدس وتحريرها): (كذلك لاحظ التعارض بين مصالح تجار المدن البحرية في المتوسط (جنوى والبندقية مثلاً) ومطامح ملوك وأمراء أوروبا وأطماعهم السياسية (الأيديولوجية) في صراعهم ضد المسلمين. فعقد مع تجار المدن الأوروبية اتفاقات لوقف تمويلهم حروب أمراء الممالك.

ولاحظ أيضاً أن أخلاق الفرنج الذين رافقوا الحملات الأولى واستقروا في المنطقة مدة حوالي القرن وتعلموا العربية وتعرفوا على عادات وتقاليد المنطقة وتسامح الدين الإسلامي معهم تختلف عن أخلاق الفرنج الجدد الذين كانوا يأتون إلي المنطقة ويحملون معهم الأحقاد والكراهية ويدفعون باتجاه القتال والانتقام والقتل فلعب على تناقضاتهم لتفكيك تماسكهم الداخلي.

كما لاحظ الصراع الخفي بين بيزنطيا (القسطنطينية) وممالك الإفرنج اللاتين فلعب أيضاً على تعارضات دولة الروم ودول اللاتين.

ولاحظ أيضاً الاختلاف الواضح بين المسيحيين العرب

والجاليات المسيحية اللاتينية التي كانت تختلف في مظاهرها وعاداتها وتقاليدها ولغاتها وسلوكها عن المسيحيين العرب فاستفاد من التناقضات ووظفها لمزيد من إضعاف جبهات الممالك الإفرنجية. حتى أن صلاح الدين لم يوفر الحشاشين، وهو تنظيم باطني حاول اغتياله ثلاث مرات وفشل، في استغلال قدراتهم الانتحارية (عمليات اغتيال مكشوفة) واستخدامهم عندما علم أن هناك خلافات بينهم وبين الصليبيين فاتفق معهم على تنفيذ اغتيالات ضد بعض زعماء الفرنج الذين كانوا يثقون بالحشاشين، وتعاونوا معهم، ونجح في تجنيدهم.....

تلقى هذه اللوحة السياسية الكثير من الأضواء على الصعوبات التي واجهت استراتيجية صلاح الدين الحربية وهي استراتيجية لم تقتصر على المعارك العسكرية فقط بل شملت كل أنواع التكتيكات السياسية المتقلبة بهدف توسيع شبكة تحالفات الداخل الإسلامي لمواجهة الخارج الإفرنجي، وهي استراتيجية كانت ناجحة عموماً وأدت إلى نتائج باهرة في ميادين المعارك وأيضاً في حقول التفاوض وتحييد هذا الفريق وضربه بالآخر ثم مهادنة هذا الفريق

للتفرغ إلى قتال ذاك.

عمد صلاح الدين إلى توسيع خلافات الخصم وتحصين الجبهة الداخلية (**على عكس ما يحصل في أيامنا**) **فاستغل كل الثغرات في حروبه ضد الفرنج**). [وليد (١١٢)(١١٣)]

واستغل على الفور صراع ريموند الثالث الذي أقصاه مقدم الداوية جيرالد وساعد غوي بدلا منه ليصير مللك بيت المقدس، استثمر صلاح الدين هذا الخلاف ليدق أسفين في الصف الصليبي و ليستكشف طوبغرفيا الأرض تمهيدا لقاصمة حطين.

ومثلما استطاع صلاح الدين أن يتعامل بحنكة مع مفردات قوى واقعة.

فقد أحسن على وفق السياسة الشرعية:

١- أن يحل معضلة الشرعية السياسية.

٢- أن يصنع عقاراً لعلاج التشرذم فيجمع شتات الأمة على منهاج مربوط بالسماء وبرنامج يفلح على الأرض به ترشد الغايات وتجمع الطاقات.

فكيف فعلها أبالخطب أم الشعارات؟!

شعارات أم خطب حماسية

هذه الوصافات البراقة والخطط المحبوكة ما كانت لتعبر الواقع إلا بأسباب تعمل بعد التوفيق من العزيز القادر.

و ما كان ذلك ليخطط وينظم إلا من عقليه مدركة تماماً لخريطة القوى ولا يكفي ذلك الفهم فالاقتصار على الفهم لا يسفر إلا عن حسن تخطيط وصدق توقع أما التعامل مع القوى فلابد له من:

(أ) قوة ذاتية.

(ب) أدوات للتعامل مع القوى المحيطة.

(ج) منظومة متكاملة وبرامج محددة.

آلات جبارة

بالرافعة تحرك صخرة أثقل كثيراً من قوتك، وإذا نزعت الحكمة من رأسك فقد تجرب قوتها بأن تنطح بها الصخرة.

هنا عبقرية صلاح الدين فقد استعان بأدوات عملاقة من أجل مشروع عملاق ألا وهو توحيد الأمة نحو الغاية.

ولكي ينجح في مبتغاه فقد عمد إلى وضع طريق عمل ترشد إليه خريطة المصالح بعد إعادة (ترسيمها) للوصول إلى أسلوب جديد للاقتسام والتوزيع والدمج.

OBEIKAN.COM

إنه يوظف كل ذلك من أجل حشد قوى الأمة (بالقدر الكاف) لمجابهة تحدي الواقع.

ويمكن صياغة إنجاز صلاح الدين بصورة أخرى: أن جوهر إنجازه هو في قدرته على جمع ودمج وتوحيد قوى الأمة، وفي تتويج جهود سابقيه بجهده هو، ويظهر ذلك المعنى من تلك الإشارة الرمزية: منبر آل زنكي يوضع في الأقصى بأمر صلاح الدين بعد عشرين عاما من موت نور الدين، وتأمل قدرته علي استيعاب كوادر الأمة وجندها من خلال الولاء لرسالة سامية بدلا من بذل الجهد في إقصائها لصالح عصبة محدودة (وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين ولم تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه من تعيين القضاة، رغم أن كمال الدين ظن أن السلطان سيعزله لم كان بينهما من مخاصمة في عهد نور الدين). [العبدة (سبق)].

وفي قدرته الفائقة على تصحيح طريقة تفاعل قوى الأمة من السلبية إلى الإيجابية، أو ليحول حاصل الطرح إلى حاصل جمع بل حاصل ضرب بالمفهوم الرياضي. في الانتقال بها من حالة التناحر إلى وضع التكاتف، بأن تضبط

بوصلتها لتكون أقرب إلى قبلتها ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. لقد وفقت الأمة لهادي خرِّيت لتجاوز فيافي التشرذم ومفاوز التنازع.

مرة أخرى نذكر توحيد الأمة – بعد تمزقها – نحو غاية هو محور إنجاز صلاح الدين، فكيف فعلها؟.

مركز الانطلاق

إن مفتاح فهم هذا الإنجاز ونقطة الانطلاق الأساسية تتجلى في الحقيقة التي لا يمكن تجوزها، أن التحدي بالأساس داخلي لا خارجي، أنه تابع من ذات الأمة لا من قدرات عدوها، وأن السبيل الوحيد هو ضبط منطلقاتها وإعادة ترتيب أوراقها بعد فرزها.

هذا الإنجاز لم يتم بالطبع من خلال حمل لواء (اليجبية) المجردة، من خلال نداءات تبدأ بكلمة يجب ثم يجب ثم يجب، أو بالاقتصار على المثالية الفلسفية العقيمة مع نوم حالم بالأماني المعسولة (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) سبق، إنما يتم هذا من خلال التزاوج بين القوة المادية والقوة المعنوية (القيم) على وفق الشريعة الهادية.

وهكذا دائما لابد أن يجتمع الكتاب ومن تحته الحديد ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

من خلال خطوات عملية متكاملة متراصة متدرجة ينظمها جميعا منهج كلي له سمات واضحة مقبولة من الكافة. مع تصور إمكانية الفلاح (من هؤلاء الذين يجمعون بين حداثة الإتباع واستمرارية اختبار قادتهم) التي تتأكد مع كل نجاح جزئي.

مع تمثل صادق حقيقي لهذا المنهج، تمثل لا مزايدة رياء من ذلك النوع الذي تسقط أقنعته مع أول اختبار بحيث يتيقن الكافة – العدو قبل الصديق – أن القائم على الأمر صاحب رسالة قبل كونه صاحب ولاية، صاحب رسالة لا مجرد طالب ملك. لقد اجتمع كل ذلك فأثمر إنجازاً فهل تماري فيما سطر التاريخ؟. ولنُنظِر ثم نفصل.

باب: حقيقة القيادة

خريطة العمل

أن تتبع خريطة ليس شرطاً لأن تسير وإنما ذلك شرط لأن تصل.

الأرض والسماء والعلامات كانت هي محدد مسارات البشر، فعلى الأرض تضاريس تجبر، وعلامات ترشد، ونجوم السماء تهدي، الجبل مانع إلا أن تجد شعباً، والحزن معيق إلا أن تجد سهلاً، ومن ضل الاتجاه وجد هداه إن رفع رأسه إلى نجوم السماء، ومن ظنه الناس صادقًا خريتا وثقوا في علاماته. تبدلت الأوضاع، تقدم الإنسان وظلت هذه الثلاثية، الأرض وتضاريسها، السماء وهديها، العلامات ودلالاتها.

الطرق والكباري والأنفاق بديلاً عن السهول، الأقمار الصناعية بديلاً عن النجوم، العلامات الحجرية والخشبية صارت مضيئة بل إلكترونية.

فمن يترك الممهد للوعر، ويعاند علامة يثق بها، ويخالف هدي السماء، إنها الثلاثية التي ترسم مسارات البشر والتي إن فقدت تشتت الناس في كل حدب وصوب.

الفشل و الشتات هكذا يكون حال البشر إن تركوا لأنفسهم وحينئذ يستحيل أن يتناغموا في عمل جماعي نحو غاية (رشيدة أو حمقاء، نافعة أو ضارة) لذا كان بديهيا عند العقلاء حتمية وجود قيادة حاكمة، ثم اشتجروا

في الأسلوب والشكل الذي يجب أن تكون عليه عملية القيادة والحكم، ثم افتخروا وتنابزوا بالألقاب، فالديكتاتورية يغلفها البعض بثوب الانضباط والحزم وينادي من حرم من الغنائم: إنها استبداد، والأرستقراطية تولت عندما وجدت الجماهير أن تلك الدماء الزرقاء لا قيمة لها ولا تمييز، والحكم بالقرآن والسنة يشوهه من يعاندهما باسم الثيوقراطية، وصار الناس فريقين في الديموقراطية. ويرى البعض من ذوي الأسماء الإسلامية أنه لا فارق بين الشورى والديمقراطية إلا في سبق الوثنيين اليونان للنبي العدنان... الخ.

مثل هذا الخلاف الناتج عن محاولة كل الأطراف لترويج غايتهم العليا (سواء كانت المصالح الذاتية أو الهوى المحض في مقابل الرسالة السامية) يجب ألا يشتتنا ونحن نبحث في الآلية التي يمكن بها توحيد جهد أمة نحو غاية، فالبشر كما أسلفنا جبلوا لأن يكون سعيهم شتى، وهذا يجعل مهب الريح هو المستقر لأي تصور للعمل الجماعي المشروط لبعث الأمم.

نعم إن كنت تملك القوة فقد تستطيع إكراه الناس على

قِطع من الطريق، وإن كنت تملك الفكرة فقد تستطيع إقناعهم لفترة من الزمن، لكن هناك استحالة تامة في كل أن تكمل كل الطريق على مر اختلاف الأزمان.

إن الفشل ولا شيء غير الفشل هو النهاية المحتومة لأي كيان يعتمد الإجبار المحض أو الإقناع المبهر سبيلاً وحيداً للقيادة. فما هو السبيل لتوحيد شتات الجهود نحو الغاية؟

جوهر عملية القيادة

قد يجيب البعض عن السؤال السابق باقتراح صورة من صور الحكم كالديموقراطية أو الإسلام أو غير ذلك من المناهج والطرق، لكن قارئنا اللبيب يدرك أن السؤال يتوجه لشيء غير ذلك، إنه يبحث عن جوهر الآليات الأساسية لعملية القيادة وليس عن أنماطها المتعارضة.

نعود مرة أخرى إلى سؤالنا البالغ الأهمية ونجيب عليه بتوظيف تلك الثلاثية (الأرض، السماء، العلامات) من خلال سؤال آخر ومثال.

فنسأل: ما الذي يلزم قائدي السيارات بالقيادة المنضبطة؟ إنها المصلحة في اجتناب المطبات والوقاية من الاصطدام بالحواجز وعلامات الطريق وإشارات المرور مع تمثل

الواعظ القيمي الذاتي بأن هذه القواعد المنظمة تمثل الصواب.

وإن ضعف هذا الواعز جبر بالخوف على المصلحة المالية (الغرامة) والجسدية (الحبس) والمعنوية (كونك متهم أو مذنب).

هكذا تظهر ببساطة ثلاثية تنظيم الجهود في مقابل ثلاثية تحديد الدروب، إنها [المصالح الأرضية والقيم العليا والإشارات [المماثلة] للأرض والسماء والعلامات]. ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥-١٦]

وهكذا بالضبط يمكن أن تتلاشى الخيارات الفردية المتضاربة المشتتة ويحل بديلا عنها الانضباط الجماعي اللازم لإنجاز طموحات الأمم.

هذا لو استطعت أن ترسم للعمل خريطة تضاريسها الأرضية المصالح ونجوم سمائها القيم والعقائد وعلاماتها إعلام يوثق به يعنون المصالح والقيم لمن يعشو عن رؤيتها فتظهر عاقبة الموافقة والمخالفة للتضاريس والنجوم.

إنها ثلاث خرائط أو قل خريطة لها أجزاء ثلاث إن التئمت وضح بها درب العمل، وبوجود الخرائط الثلاث

[خريطة المصالح، خريطة القيم، خريطة الإعلام] يستحيل الشتات التزام، والتسيب انضباط.

وبقدر إتقانها يكون الحماس الطوعي الذاتي لذلك السبيل المرسوم سلفًا، ويكون الإكراه السافر استثناء، فهناك ما يغني عنه.

والقبول الشعبي لبعض النظم مثل النظام الأمريكي أو الياباني مثلاً لا يعود في حقيقته إلى شعارات الديموقراطية أو حرية الاختيار المتوهمة للأفراد وإنما يرجع لأن السادة المنتفعين يجيدون العزف على الأوتار الثلاثية، ولهذا براهين لا محل لها هنا، وهكذا بدأت الخطة الأمريكية تحت نشوة الانتصار السهل بتفكيك كل مؤسسات الدولة البعثية وكانت تؤجل إجراء الانتخابات في العراق بالرغم من زعمهم نشر الديموقراطية، ببساطة كانت تتوهم أن تعيد رسم الثلاثية على المصالح الإمبريالية – تماما مثلما كانت بريطانيا تستخدم اللعبة الديموقراطية في مستعمراتها الغابرة – ولكن تحت ضغط المقاومة السنية والمراوغة الشيعية وجدوا أنفسهم في مستنقع فعمدوا لاستبدال ذلك الوهم الجميل بمحاولة ترتيب معاهدات تضمن لهم تحقيق أهداف

الغزو في حدها الأدنى من خلال حكومة تشكل تحت غطاء انتخابات، فهل ينجحون في ذلك . . .إن الغد لناظره لقريب. استطرادي هذا ليس لتحليل الواقع العراقي فليس هذا محله، وإنما لبيان أن هذه الثلاثية هي أدوات يتعلق بها الماضي والحاضر والمستقبل السياسي وليست تحف أثرية. لكن لنشرع الآن في الإشارة لهذه الثلاثية في وصفة صلاح الدين.

خريطة المصالح

تحديد ماهية نظام ما، معرفة أهدافه، توقع أفعاله، أمر عسير لمن اقتصر على المعلن من الأقوال، والمرفوع من الشعارات؛ أما من رسمت في ذهنه خريطة المصالح لذلك النظام (الكيان) فهو يرى ذلك الكيان على حقيقته العارية، ومن أراد ذلك عليه أن يجيب على أسئلة منها: لمن الاستحقاق؟ ما ميزان التوزيع ومقياس التفاضل؟ ..... أو باختصار لصالح من هذا الكيان؟

وبقدر اتساع الخريطة يمكن استيعاب مكافئ من الأفراد، وكذا الكيانات، المنظومة في دائرة ذلك النظام.

هنا مكمن التحدي في أن تعيد صياغة يمكن بها:

١- التوفيق بين المصالح (فالناس في مجال المصالح جبلوا على التنافس لوجهات متقابلة ولطبقات عديدة).

٢- إعادة ترتيب الأولويات لتشمل المصالح العامة الكلية للأمة والمصالح الخاصة لأفرادها مثل (الطبقة الحاكمة، القادة، الجند، عموم الناس، الفقراء، الأعيان، الخليفة العباسي، باقي الأمراء وأتباعهم وأذنابهم، أهل العلم والشيوخ ...الخ).

٣- وأن تبقى بعد ذلك بقية لمن استهدف انضمامه إلى ذلك (النظام) (الكيان) ليشارك في الولاء ويعمل نحو الغاية.

من أراد أن ينال قناعة كل هؤلاء فعلية أن يجد ما يريدون و أن يبرز مقياسا للعطاء يراه الكافة عدلاً، وأن يكون في نفسه قدوة، حتى يمكن لغيره أن يقهر دوافع الحقد والحسد والغل في نفسه .

إذن لابد من خريطة جديدة واقعية للمصالح ترشد ولا تستأصل الأطماع البشرية، تعتبرها طالما لا تعارض مصالح الأمة ولا تفرق الصف ولا تتعدى على حق الغير.

لقد كان الخوف على المصالح أحد أهم الأسباب المعيقة لتوجه الجهود نحو العدو: (وفي عام (٥٠٥) تحمس

السلطان السلجوقي لمساعدة المسلمين في بلاد الشام فجهز جيشا كثيفا برئاسة الأمير مودود ومعه الأمراء: صاحب تبريز (سكمان القطبي) وصاحب مراغة (أحمديل) والأمير ايلغازي صاحب ماردين، واستطاع هذا الجيش انتزاع بعض الحصون من الفرنجة ولكن أكثر الأمراء رجعوا إلى مدنهم خوفا من حدوث أي انقلاب عليهم، ثم إن البطانيين قتلوا الأمير مودود في الجامع الأموي في دمشق). [(٣٣) العبدة].

ولكي تكون المصلحة على هذا النسق ولكي تكفي الكافة لابد أن نجد كنز لا ينفذ، وأن يعاد صياغة نظرة الأفراد إلى مفهوم المصلحة بحيث ينظر للمصلحة العامة للأمة على أنها جزء من المطلب الخاص للفرد (طوعاً أو دفعاً)، وهذا هو المدخل للخريطة الثانية من حيث التناول الأولى من حيث الأهمية.

خريطة القيم

إن قيم الفرد سواء كانت سامية أو وضيعة هي مقياس الصواب والخطأ لديه، وهي التي تشكل العدستان اللتان ينظر بهما للمصالح المتقابلة (الدنيوية/ الدينية) (الفردية

/ العامة)، فلأي المصلحتين تجعل المحدبة ومن ثم لضرتها تجعل المقعرة، وبأي قدر، ذاك هو المحدد لسلوك الفرد ومن ثم الجماعة .

ومصدر كل ذلك هو القيم الذاتية للفرد، قارن بين سلوك أمراء الأندلس الذين أدى تنافسهم إلى سقوط راية الإسلام على أرضهم ومنهم الملك المعتمد العباد، مع سلوك نفس ذات الملك عندما يعلن قيم جديدة عندما أنكرت عليه بطانته الاستعانة بيوسف بن تشافين وخوفوه على دنياه: لو جاء ابن تشافين لجعلك سائسا لإبله، فقال لهم قولته المشهورة: لأن أرعى الإبل خيراً لي من أرعى الخنازير.

صلاح الدين إذن ما كان ليغفل تلك الحقائق، ولما كان مسلما كان كنزه هو الإسلام، فسار على محورين:

الأول: المحور العام كما أسلفنا رفع الإيمان، الاهتمام بالأصول وبالعلماء (ومن أجل أن يصل إلي غايته كان عليه أن يقوي أعماله والقدوة التي يخلقها بإيجاد تيار خلقي ونفسي يسند موقفه ويكون قوياً بحيث تتعذر مقاومته. فكان لذلك في حاجة إلى حلفاء وبخاصة طبقة (فقهاء المدارس) قادة الرأي العام يومئذ ، وذلك من أعسر الأمور

لأن هؤلاء الفقهاء كانوا كما ذكرنا آنفاً، يمثلون – على وجه التحديد – الفئات التي اتخذها نور الدين لتأييده. وبما أن صلاح الدين بدا أول الأمر مغتصباً تحدّى ورثاء نور الدين، فإن هؤلاء الورثاء وشعب سورية بوجه عام اتخذوا في البداية جانب المعارضة له، أو على الأقل، جانب الحذر منه. ولا نجد في المصادر العربية إلا إشارة ضئيلة إلى ما طرأ على موقفهم من تغير تدريجي، لكن هناك شواهد كثيرة في التواريخ وفي روايات المعاصرين تدل على أنه استطاع بصدقه و إخلاصه أن يكسب آخر الأمر احترامهم له وإعجابهم به). [دراسات (١٣٥)]

الثاني: بتقرير قيم محورية (بصورة عملية)، على رأسها جاءت قيم تعظيم أحكام الشريعة و الولاء والبراء والجهاد والوحدة.

فهو يصبغ الإطارات الحاكمة للصواب والخطأ صياغة سياسية شرعية يتوجه بها للآخرين ويشنع على ويفضح المخالف. فيروي لنا صاحب الروضتين ما حدث بعد أن (خرج جيش الموصل بقيادة سيف الدين يريد استئصاله فراسلهم واجتهد أن يصالحهم فغرتهم كثرتهم فلما هزموا وأسر بعضهم صلاح الدين «ووجد السلطان عسكر الموصل

كالحانة من كثرة الخمور والعيدان والمغنيين والمغنيات، قال: واشتهر أنه مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لمعسكره واستعاذ من هذه البلية. [(٣٠٦) الروضتين] «بعد آن أمر أصحابه برفع السيف وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب» ثم من على كل الأسري وأطلقهم.

باب: الولاء والبراء

الولاء والبراء أساس للوحدة والنصر

التطبيق العملي لمفهوم الولاء والبراء هو أحد مرتكزات النصر الأساسية، سواء من وجهة النظر العقدية الغيبية التي يستجلب فها من كان مؤمن عون الله أو من وجهة النظر الموضوعية الأرضية، وهو مؤشر صادق لتقييم حال الأمة وفرصها لنيل الانتصار أو السقوط في هوة الاندحار، وما كان صلاح الدين ليغفل ذلك لذا فهو يؤكد بالقول والأمر والعمل والتهديد، ويتضح منهجه كل الاتضاح «في رسالته إلى قلج ارسلان سلطان الأناضول عام ١١٧٨م التي يقول فيها: أنه لن يسمح بتداول الحروب بين أمراء المسلمين بدلاً من اتحادهم معاً في الجهاد. [دراسات (١٣٤)]

ويأمر أخاه في صيغة تجمع بين اللطف والحزم والترغيب فيرسل إليه: (والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لا يسلون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وأنهم – لعنهم الله – أمما لا تحصى، وجيوشاً لا تستقصى، ويد الله فوق أيديهم، وسيجعل الله بعد عسراً يسراً .. وإن لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، **وكانوا لباطنهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض**.. فإنا لا نرتاب بأن الله – تعالى – ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنما يؤثر أن يتساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولا يسرنا أن ينقضي عمره (أي سيف الإسلام) في قتال غير الكافر ونزال غير الكفر المناظر) [(٤٠٨) الروضتين] فهو لا يرضى من أخيه سيف الإسلام والي اليمن أي تقصير أو التفات لخصم مسلم يكون بدلا للعدو الكافر. ويحاول إجبار قبيلة جذام على تنفيذ مقاطعة اقتصادية مع الصليبيين.

ويشنع على من خرق هذا المبدأ دون اعتبار لأي مبررات، وها هو يرسل للخليفة العباسي بعد اتفاق منافسيه

مع عدو ه: «المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشة واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنجة الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الإسلام تقلع، وبدار دعوة بحلب يُنصب فيها علم الضلالة فيرفع، ويا للعجب من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه، بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القمّصُ ملك الفرنج ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث: **يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة**، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الإسلام يد مغيثة، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه، وما يريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلا ما يتقرب به إليه وهو الطاعة، ولا يتوخى إلا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة)». [(٣٤٨) الروضتين].

ويتضح منهجه كل الاتضاح في رسالة أخرى للخليفة (هذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة للخليفة هي مراد الخادم من البلاد

البلاد إذا فتحها و الله العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا لغضب يملأ العيان).

في الحقيقة هذا المبدأ الولاء والبراء هو الضمانة التي تمنع العدو من أن يكون أحد عازفي إيقاع لعبة العروش الموسيقية خصوصاً إذا كانت غاية العروش هي توسيع الكروش.

وقد تلاشى حكم الفاطميين بتلاشي هذا المبدأ الذي يفرز ثنائية (عدو / صديق) بصورة عملية.

وهكذا وجد الصليبيون ونور الدين محمود مدخلا في اللعبة السياسية بمصر، وفي النهاية جاءت نهاية الدولة الفاطمية وحسم الأمر لصالح أهل السنة ولهذا تفصيل أعرضنا عنه للاختصار.

لذلك استمات صلاح الدين – الذي شارك بالحظ الوافر في الصراع السالف الذكر – في سبيل ذلك المبدأ (الولاء والبراء) وتحقيقه بكل الوسائل المادية والمعنوية وبالترغيب والترهيب.

والأكثر من ذلك يستثمر الخلل الذي أصاب هذا الأصل عند الصليبيين ليضرب ضربته الكبرى في حطين.

ومن يدرك حقيقة الآثار المترتبة على (إعمال / إغفال)

هذا المبدأ يعي لماذا كل هذه الضغوط لتجديد الخطاب الديني وتطوير التعليم، فهكذا تخضع الأمم الأبية وتركع.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ : ٥٧].